Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة « الدورات »

ضرورة الإنسان الاقتصادي من أجل الإقلاع الاقتصادي لدول أوروبا الشرقيّة

فاس
12-14 شوال 1410

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

مستقبل أوروبا الشرقية الجديدة وأفكار حول علاقات جديدة ضمن الشمال بشرقه وغربه ومع الجنوب

أحمد صدقي الدجاني

سيذكر خريف عام 1989 الميلادي في تاريخ العالم مقترنا بالأحداث المتسارعة، بمعدل فاق كل تصور، التي شهدتها أوروبا الشرقية. ولا تزال التحولات الجارية على قدم وساق هناك تحدث تغييرات عميقة في الدول الأوروبية الشرقية. وإذا كانت هذه التغييرات تفعل فعلها في مختلف جوانب حياة الأوروبيين الشرقيين، فإن لها أيضاً آثارها على الصعيد العالمي. وقد أبرز هذه الحقيقة جورجي أرباتوف في حديثه للتلفزة الأمريكية يوم 1989/11/14 حيث قال «إن التغيرات العميقة في أوروبا الشرقية أوجدت مشكلات في جميع البلدان. وإن ما يجري الآن هو سقوط للحرب الباردة.. وهو يحدث تغييرات في الفكر السياسي التقليدي»(1). وواضح أن ما تشهده أوروبا الشرقية اليوم وثيق الصلة بتعثرها الاقتصادي الذي أسماه بريجنكي «الفشل العظيم»(2). وهذا يدعونا إلى البحث في «متطلبات الإقلاع الاقتصادي لأوروبا الشرقية ورؤية مستقبلها، وهو الموضوع الذي

---

(1) عن جريدة بوست 89/11/17 نشرات دار الجليل عمان، وأرباتوف هو مستشار الرئيس جورباتشيف.

(2) «الفشل العظيم مولد وموت الشيوعية في القرن العشرين» عنوان كتاب بريجنسكي.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

تفضل راعي أكاديميتنا الملك الحسن الثاني باختياره ليكون موضع الدراسة في هذه الدورة التي تتميز بالاحتفال بالذكرى العاشرة لتأسيس أكاديمية المملكة المغربية وإن لنا بهذه المناسبة نحن الذين نعتز بانتمائنا لها أن نبارك للمغرب وعاهله ونعرب عن سعادتنا بالدور الذي تقوم به أكاديميتنا كمنارة تشع العلم في عالمنا، وبالعناية التي يوليها راعي الأكاديمية لقضايا عصرنا.

تبدأ أوروبا الشرقية، وعالمنا يدخل تسعينيات القرن العشرين، مرحلة جديدة في تاريخها. وقد جاء انعقاد قمة مالطا بين الرئيس الأمريكي بوش والرئيس السوفيتي جورباتشيف في ديسمبر/ كانون أول من عام 1989 إيذانا بانتهاء مرحلة بدأت في فبراير/ شباط من عام 1945 حين انعقدت قمة يالطا أواخر الحرب العالمية الثانية بين الرئيس الأمريكي روزفلت والزعيم السوفيتي ستالين ورئيس الوزراء البريطاني تشرشل. وطبيعي أن تقوم في ظل المرحلة الجديدة علاقات جديدة بين دول أوروبا الشرقية والشمال بشرقه وغربه والجنوب. وإن لنا ونحن نستشرف مستقبل أوروبا الشرقية ونتشوفه وصولا إلى رؤيته، أن نطرح أفكارنا حول هذه العلاقات ومحدداتها.

حول التغيير

نستشعر الحاجة بداية ونحن نقوم بذلك، إلى أن نتأمل فى طبيعة التغييرات العميقة الحادثة وحدودها. وقد برزت هذه الحاجة بفعل الجو المحيط بالبحث، والحديث يتردد في عالمنا عن «العالم الذي يتغير بسرعة» وعن «التحولات السريعة في البيئة الاستراتيجية العالمية» وعن «تصاعد التاريخ بسرعة البرق» الذي تحدث عنه بريجنسكي مقررا أن «بوش وغورباتشوف كانا ولا يزالا في خطر من أن يصبحا مسبوقين به»(3). ويدل هذا الحديث بمجموعه على حالة من «الإثارة والتوتر

(3) مجلة نيوزويك 89/12/18 حوار مع بريجنسكي «بركان الأمم».

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

وحبس الأنفاس» يعيشها مرددوه وهم يتابعون الإعلام عما يجري في عصر «ثورة الاتصال». وقد أوصلت هذه الحالة بعض هؤلاء إلى أن يقع في أسر المبالغة فيتحدث عن «نهاية العالم» أو «نهاية التاريخ». ولا نلبث أن ننتهي من هذا التأمل إلى أن هذه التغييرات مع عمقها وشدة تأثيرها فهي ليست فريدة حيث تعرضت أوروبا الشرقية لمثلها مرات في تاريخها المتصل، ولم تكن المرة السابقة لهذه المرة إثر يالطا بأقل عمقا وشدة. وننتهي أيضا إلى أن هذه التغييرات لم تكن بدون إرهاصات وقد توقعها عدد من المفكرين الاستراتيجيين من بينهم عالم الجغرافيا السياسية العربي جمال حمدان الذي كتب في السبعينات في كتابه «استراتيجية، الاستعمار والتحرير» عن رأي يقول بإمكانية تحلل الكتلة الاشتراكية من الداخل، «لأنها موحدة فقط بالقوة والقهر وحدهما، وهي تطفح بالتذمر والغليان والرفض المكبوت، والانتفاضات. أو الانتفاضات على «أخوة» المعسكر تُنَقِّطُ مسيرته منذ بدايته»(4)، ومن بينهم أيضا الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون الذي قال قبل عامين في كتابه «1999 نصر بلا حرب»: «إن أوروبا الشرقية ناضجة اليوم لتغيير إيجابي سلمي»(5). والحق أن ما تميزت به هذه التغييرات عن سابقاتها أنها تمت في الغالب سلمياً.

يوصلنا تأملنا في حقيقة أن التغيير تم سلمياً إلى ملاحظة أن القيادة السوفيتية في مرحلة إعادة البناء أعطت الضوء الأخضر لإحداث تغيير في بعض المستويات، وأن هذا التغيير لا يمس الجيش واستراتيجيته وهو قاعدة النظام، وأن هناك خطوطاً حمراً رسمت تحدد حدود التغيير وتم التفاهم مع الغرب على عدم التشجيع على تجاوزها، والسماح بالتغيير في حدودها.

---

(4) جمال حمدان «استراتيجية الاستعمار والتحرير»، عالم الكتب، القاهرة.

(5) ريتشارد نيكسون «1999 نصر بلا حرب»، الأهرام، القاهرة.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

وإذا كان شارع الأحداث قد جاء أكثر من المتوقع وسبَّب من ثَم بعض الارتباك فإن من الواضح أنه لم يؤد إلى الانهيار الكامل ولا إلى المساس بأجهزة الجيش والشرطة. ويوصلنا تأملنا في التغيير الحادث ككل إلى الاتفاق مع الرأي القائل «إن عملية التغيير لا تحدث بشكل موضوعي آلي بحث من جراء تطور القوى الإنتاجية أو مقتضيات المرحلة الثانية للثورة الصناعية، وغير ذلك من الأسباب التي يسهل وصفها كمياً. وإنما هي عملية تقوم بها الإرادة السياسية بدور رئيسي يمتد مجاله من الجغرافيا السياسية العالمية والإقليمية إلى الدين وصراع الحضارات»، وهو الرأي الذي استخلصه أنور عبد الملك من دراسات المشروع الذي نسّقه في إطار جامعة الأمم المتحدة حول «تغيير العالم»(6). وواضح أن هذا الرأي يتصل بحقيقة أن التغيير سنّة أصيلة من سنن الحياة وينبّه إلى عوامل ثابتة تقف وراء هذه السّنة. وقد حرص أجدادنا المؤرخون الذين ظهروا في دائرة الحضارة العربية الإسلامية على إبراز هذه الحقيقة في خطب كتبهم من منطلق الإيمان مؤكدين على القيم الروحية، ومثال ذلك قول ابن الأثير صاحب «الكامل في التاريخ»: «الحمد لله القديم، فلا أول لوجوده، الدائم الكريم فلا آخر لبقائه ولا نهاية لجوده.... المقدس فلا تقرب الحوادث حماه، المنزه عن التغيير فلا ينجو منه سواه. مصرف الخلائق بين رفع وخفض وبسط وقبض وإبرام ونقض وإماتة وإحياء وإيجاد وإفناء، وإسعاد وإضلال وإعزاز وإذلال، يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير»(7).

---

(6) أنور عبد الملك «تغيير العالم» سلسلة عالم المعرفة.

(7) ابن الأثير «الكامل في التاريخ».

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

حول الإنسان الاقتصادي

نستشعر الحاجة أيضاً بين يدي الموضوع إلى أن نتأمل في «العامل الاقتصادي» الذي كان له أثر واضح فيما يجري في أوروبا الشرقية، وفي مفهوم «الإنسان الاقتصادي» الذي يسيره عامل المصلحة الفردية المادية فحسب، المحرر من كل ضغط اجتماعي الساعي لتحقيق أكبر قدر من المنفعة الذاتية بأقلّ قدر من المجهود والنفقات، وذلك كي نحسن مقاربة هذا العامل، وننتهي من هذا التأمل إلى التأكيد على دور الإنسان الفرد في الحياة الإنسانية، وحقيقة كون هذا الإنسان الفرد حيواناً اجتماعياً. فالبحث في الإقلاع الاقتصادي والتنمية عموماً يحيلنا كما يقول فرانسوا بيرو في كتابه «فلسفة لتنمية جديدة» الذي قدمه لقراء العربية زميلنا علال سيناصر «إن التنمية تحيلنا إلى الإنسان، إلى الذات، إلى العنصر، إلى المجتمعات الإنسانية، إلى غائيتها، إلى أهدافها التنموية دون شك. حسب المرء أن يقترب من فكرة التنمية حتى يغدو بإمكانه توقع مسلسل من التنميات الجديدة توجهها المقاربات المتتابعة للقيم التي يؤمن بها الناس وشروط تحويلاتها التاريخية إلى أعمال وإنجازات.. والتنمية الجديدة تطمح إلى أن تكون شاملة متكاملة منبثقة من الداخل. وكل واحد من هذه الألفاظ له معايير عديدة ومقارنتها لا تقدم معنى أحادياً جلياً.. لقد أصاب الكلاسيك الإنجليز الآوائل باتخاذهم العالم كله والإنسانية قاطبة مجالاً لتفكيرهم. لكنهم أضلوا العقول حين نسبوا للصناعة القدرة على إقرار السلم، ولتوسع السوق القدرة على توزيع الموارد حسب مقتضيات النجاعة الاقتصادية والعدالة القابلة للتحقيق.. الاقتصاد هو التنظيم لمصلحة الجميع ولكل واحد.. والاقتصاد الحديث العهد يتخلص بصعوبة بالغة وعلى نحو شديد النقص من الفردانية النفعية التي وجهته عند ولادته وحولت التلبية القصوى للرغبات إلى مادية مبتذلة بعيدة كل البعد عن مصادرها،

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

وفلسفته هي انعكاس ضرب من العادة السلعية التي تحطم التضامن الإنساني. ولابد من القيم التي تُعرّف الإنسان بما هو إنسان في كل الفلسفات وجميع الأديان»(8). والحق أن القوانين الاقتصادية ترجع في أسبابها إلى أمور إنسانية، وصدقها يستلزم توافر عدة شروط فرضية قلما يتاح توافرها جميعاً، كما يلاحظ على عبد الواحد وافي وهو يتحدث عن علم الاجتماع الاقتصادي(9). ولقد عرّف رالف بارتن بيري في كتابه «آفاق القيمة» الاقتصاد برؤية فلسفية فرآه في معناه الأولي «هو تنظيم يحصل الناس ذوو المصالح بمقتضاه على ما يحتاجون إليه». ولاحظ «أن وظيفة الاقتصاد ليست محدودة بأي فئة من المصالح، لأن كل المصالح من الناحية الإنسانية تولد حاجات تكون شرطاً لها. ومن ثم فإن الاقتصاد ليست محددة بأي فئة من المصالح، لأن كل المصالح من الناحية الإنسانية تولد حاجات تكون شرطاً لها. ومن ثم فإن الاقتصاد شامل متغلغل في كل نواحي الحياة ويتميز بالعمومية والإحاطة»، ونبّه بيري إلى «أنه لما كان الاقتصاد مصاحباً في الوجود للإنسان زماناً ومكاناً، فإن علم الاقتصاد التفسيري بحث لا يستقصى أبداً، ولا يوجد سبب يؤثر على الحياة الإنسانية ولا يؤثر على الاقتصاد.. ويعكس الاقتصاد عن طريق المصالح التي يخدمها ضمير المجتمع وأهدافه وأعرافه وطابع نظمه السياسية.. الأمر الذي يصل بنا إلى أن القانون والعلم والفن والدين والتربية، كلها تحدد الاقتصاد». وهذا يصل بنا إلى أمر العلاقة بين الاقتصاد والأخلاق، وإلى وجود هدف أخلاقي نهائي للاقتصاد، وإلى أن مضمون المقياس الأخلاقي يتغلغل في التفكير الاقتصادي كله، وإلى أن المفكر الاقتصادي يجب أن يستعرض الاقتصاد ككل، ويحكم على تدابيره وإجراءاته

---

(8) فرانسوا بيرو «فلسفة لتنمية جديدة» اليونسكو.

(9) علي عبد الواحد وافي «الاقتصاد السياسي» دار نهضة مصر.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

وعملياته وأداتياته بالخير الأخلاقي(10). كما ننتهي من هـذا التأمل إلى الاتفاق مع الرأي الذي ينتهي أصحابه من النظر في رؤى ثلاث حـول «التغير الاقتصادي» إلى أن الرؤية التقليدية التي ترى أنـه لا مفـر من تغليب نظام ومذهب على آخر، لا يمكن أن تتحقق، وأن دعـاة الـرؤيـة التكنولوجية، يجب ألا ينسوا العنصر الإنساني الواعي الإرادي الإيماني في الإنسان الذي يميزه عن الآلة الصّماء، وأنه لا بديل من ثم عن رؤية حضارية شاملة تأخذ في اعتبارها بعدي المكـان والـزمـان ومـا ينجم عنهما من «خصوصية» وتركـز على سبر أغـوار هـذه «الخصـوصيـة القومية» لمعرفة الطاقات الكامنة غير المستعملة أو حتى غير المرصـودة وتعبئتها بشكل فعال بغية الانتقـال من الإمكـان إلى العمل، كما يقـول أنور عبد الملك(11).

النظرة الحضارية

نستشعر الحاجة أخيراً في ضوء ما سبق ونحن نتهيأ لطرح أفكارنا وبلورة رؤيتنا المستقبلية، إلى استحضار «أطلس المجتمعات» في أوروبا الشرقية والتأمل في خرائطه واحـدة واحـدة ثم فيهـا مجتمعـة. وأطلس المجتمع كما تحدثت عنـه في كتـابي «وحـدة التنـوع» يضم خـريطـة جغرافية سياسية وخريطة أقوام وخريطة مِلَل وخـريطـة أنماط حيـاة وطبقات وخريطة عمران بشري(12). وننتهي من هـذا التأمل إلى إكمال الأسـاس الاقتصـادي في تقسيم العـالم لشمال وجنـوب بـالأسـاس العقيدي في تقسيم الغرب إلى شرق اشتراكي وغرب رأسمالي، بالأساس السياسي في تقسيم الأنظمة إلى جمعية شمولية وآخرى حـرة، وصـولاً إلى الأسـاس الحضـاري في التقسيم واعتماده. وقـد أوضح بيري أن

---

(10) رالف بارثن بيري «آفاق القيمة» ترجمة عبد المحسن سلام، النهضة المصرية.

(11) أنور عبد الملك مصدر سبق ذكره.

(12) أحمد صدقي الدجاني «وحدة التنوع وحضارة عربية إسلامية»، دار المستقبل العربي.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

أولئك الذين يؤكدون الأسس الاقتصادية لنظام الحكم يخطئون في نسبة التركيز، وأن نظام الحكم لا يتأثر فقط بهذه الأسس التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بواسطة الهدف الأخلاقي المشترك مثل الضمير والقانون بل بالفن والعلم والتراث والتربية وبالدين وبالمزيج الثقافي برمته أيضاً، وأن الأحكام المعيارية الداخلية تعمل في نظام الحكم كأسباب شأنها في الضمير وقد أصبح من الضروري، بسبب الدعاوى المسرفة في النظر إلى دور العقل في الأمور الإنسانية، تسليط الضوء على فعل الأسباب الأخرى مثل اللامعقولية والأثرة والطموح الباغي والغرائز الإنسانية البدائية والصراع من أجل البقاء والظروف الفيزيقية للتربة والجو(13). كما ننتهي من هذا التأمل أيضاً إلى أن اعتماد النظرة الحضارية الشاملة في تحليل الواقع وربطه بحركة التاريخ وبإرادة الفعل والحلم في منهج الدراسة المستقبلية هو الذي يصل بنا إلى الرؤية النافذة، فلا نقع فيما وقع فيه جاروميل (الذي يتبادل الحب مع الربيع) الشاب الشاعر في رواية الكاتب التشيكي الفرنسي كونديرا «الحياة هي في مكان آخر» حين جعل الحلم يفصله عن الواقع تماماً وسلّم نفسه لمفهوم خاطيء للثورة «جعل المستقبل يقدم يقيناً داخل حاضر مصنوع من لا يقين»، من خلال «قراءة الكراسات والكتب والمحاضرات وخطابات الدعاية»، فجاءت رؤيته قاصرة(14).

* * *

يدعونا البحث في علاقات أوروبا الشرقية المستقبلية مع أطراف الشمال وأطراف الجنوب إلى النظر في العوامل التي تتفاعل في تكوين هذه العلاقات، ونتمعن بخاصة في المكان والزمان والحال.

---

(13) پيري مصدر سبق ذكره.

(14) ميلان كونديرا «الحياة هي في مكان آخر» ترجمة رنا إدريس، دار الآداب.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

المكان

يوصلنا التمعن في المكان إلى التأكد من حقيقة أن جغرافية إقليم ما تملي استراتيجيته. وتبدو لنا الأهمية الاستراتيجية لأوروبا الشرقية التي أبرزتها نظرية ماكيندر حول الجزيرة العالمية وقلب الأرض وقوى البر والمحيط العالمي والهلال الخارجي والهلال الداخلي وقوى البحر. ويعتبر علماء الجغرافيا السياسية أن شرق أوروبا هو مفتاح قلب الأرض. وهم يذكرون معادلة ماكيندر الثلاثية التي لخصت نظريته وجاءت أحداث الحربين العالميتين مصدقة لها «من يحكم شرق أوروبا يسيطر على قلب الأرض. ومن يحكم قلب الأرض يسيطر على الجزيرة العالمية. ومن يحكم الجزيرة العالمية يسيطر على العالم». كما أنهم يلاحظون أن أوروبا بمجملها تعد شبه جزيرة من آسيا، واعتبار جبال الأورال حدوداً بين القارتين هو مجرد اصطلاح شكلي بحت لا يقطع استمرار الحقائق الجغرافية. وهذا ما حدا بماكيندر إلى أن يدعونا للنظر إلى تاريخ شرق أوروبا على الأقل كجزء من تاريخ آسيا، وإلى أن نخضع تاريخها السياسي لتاريخ القارة الأم. وقد لفت جمال حمدان في كتابه «النظائر الجغرافية في آسيا وأوروبا» النظر إلى الانحدار التاريخي بين القارتين من آسيا إلى أوروبا قديمًا ومن أوروبا إلى آسيا حديثاً. ونصح ماكيندر بإيجاد نطاق من الدول الصغيرة المتماسكة في الصف الأوسط من شرق أوروبا كي يفصل بين قلب الأرض والقوى الساحلية ويعزله عنها. ويلاحظ حمدان أن هذا الذي تحقق في فرساي واستمر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ثم أصبح هذا الصف الأوسط جزءاً من الكتلة الشرقية. وهذا ما أدى إلى ربط الهلال الداخلي بقلب الأرض. ومستقبل العالم يتوقف وفق منطق نظرية ماكيندر على حفظ التوازن في القوى بين الأقاليم الساحلية والقوى الداخلية. وهذا ما دعا الولايات المتحدة أكبر معاقل القوة

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

البحرية إلى انتهاج سياسة توصل إلى هذا التوازن. ويؤكد علماء الجغرافيا السياسية على الترابط الذي يفرضه بُعد المكان بين أقطار أوروبا الشرقية، وقد توقعوا وهم يتابعون ما حدث من انتفاضات في هذه الدول أن يؤدي سقوط حجر واحد منها إلى تفكّك الجدار كله وانفراط العقد جميعه وفق نظرية الدومينو(15).

ما هي في ضوء التمعن في «المكان» الخطوط الرئيسية التي توجه الجغرافيا السياسية علاقات أوروبا الشرقية المستقبلية؟ والتوجيه هنا كما عرفه جيمس فيرجريف في كتابه «الجغرافيا والسيادة العالمية» لا يعني صنع الأشياء ولا خلق أسباب وجودها، وإنما رسم خطوط الطريق الذي ستجري فيه الأحداث وتحديد اتجاهها.

إن لنا أن نتطلع لتوجه دول شرق أوروبا إلى توثيق العلاقات فيما بينها، بما في ذلك بقية دول البلقان. وسيكون المجال مفتوحاً أمام هذه الدول إذا قربها التغيير من النموذج اليوناني، كي تقيم رابطة فيما بينها تضم يوغوسلافيا وألبانيا واليونان. وإن لنا أن نتوقع أيضاً بقاء دول أوروبا الشرقية على علاقة خاصة بروسيا كبرى جمهوريات الاتحاد السوفييتي وأن تكون علاقاتها بالشرق الآسيوي محكومة بهذه العلاقة الخاصة. ومن المتوقع أن تقيم هذه الدول علاقة أوثق بأقطار أوروبا الغربية، وأن تتحسن علاقاتها بالولايات المتحدة الأمريكية ضمن هامش التوافق الدولي. ولنا أن نتوقع تزايد اهتمام هذه الدول بسياستها المتوسطية وتحسن علاقاتها بدول الجنوب.

الزمان

يدعونا التمعن في بُعْد الزمان إلى الوقوف أمام عِبَرِ مرحلتين من مراحل تاريخ أوروبا الشرقية. والأولى منهما هي في عصر النهضة

(15) جمال حمدان مصدر سبق ذكره و«النظائر الجغرافية بين آسيا وأوروبا» عالم الكتب.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

الأوروبية شهدت إنشاء الاقتصاد الأوروبي الغربي في مناطق مختلفة من العالم نوعاً جديداً من التجارة هو التجارة بالضروريات على نطاق شعبي أكثر من التجارة بالكماليات. فكان أن اصبحت أوروبا الشرقية لا تعتمد على الاقتصاد الغربي الأوروبي فحسب، بل أصبحت خاضعة له حين صدرت المواد الغذائية والمعدات البحرية. وقد شرح ستافريانوس «التصدع العالمي، العالم الثالث يشب عن الطوق» ما حدث في هذه المرحلة لأوروبا الشرقية وترتب عليه «تقسيم القارة الأوروبية إلى شمال غربي ديناميكي مصنع وإلى شرق زراعي تابع حافظ على وجوده حتى منتصف القرن العشرين». وهو يعتمد تعريفاً للعالم الثالث هو «البلدان والمناطق التي شاركت بشروط غير متكافئة فيما يدعى اقتصاد السوق العالمي»، ويرى أن تخلف العالم الثالث وتطور العالم الأول لا يمثلان ظاهرتين منفصلتين، وإنما هما ظاهرتان متصلتان عضوياً ووظيفياً وأن ولادة هذا العالم الثالث تمت في شرق أوروبا بتلك الطريقة في القرن الخامس عشر. وهو يقول «لو أن لصفة الاستعماري أدنى صلة بالظروف الأوروبية لكان تصدير الحبوب من أوروبا الشرقية هو ذلك الفرع من التجارة الذي يستحق تصور صفته النوعية، ليس لأنه الإنتاج الزراعي الخام الوحيد، بل لأن دفع ثمنه كان يتمّ بواسطة الواردات المصنعة ويشرف على تجارته وسطاء من التجار والشاحنين الأوروبيين الغربيين، كما أنه أخضع ثروات الاقتصاديات الشرقية ومنظماتها الاقتصادية وبنيتها الاجتماعية لمستلزمات الأسواق الغربية فكان لتجارة الحبوب آنذاك تأثير يماثل تأثير التجارة العالمية المتخلفة التي تصدر المنتوجات الأولية.. والبلدان الأوروبية الشرقية هي أولى المناطق التي دخلت نظام تجارة الجملة كمناطق تخوم تابعة، وليس البلدان الواقعة ما وراء البحار. وإن انحدار أوروبا الشرقية يجب تفسيره في ضوء انخراطها في

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

الأحداث وليس في ضوء انطوائها على نفسها. وهنا تبدو العلاقة السببية بين الظاهرتين»(16).

المرحلة الأخرى هي في عصرنا وقد رسمت خطها العريض تسويات ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومؤتمر يالطا رمز لها. ويمكننا أن نستخلص من ملف جريدة التايمز اللندنية بمناسبة أربعين سنة مضت على إبرام هذه التسويات النظرة السائدة حول هذه المرحلة. فضمن هذه النظرة هناك من قبل تقسيم أوروبا إلى قسمين كأمر واقع بغية تجنب حرب عالمية ثالثة، وهناك من يرفضه ويسعى إلى تغييره. ويقول الرافضون إن عشرات الملايين من الناس في وسط أوروبا وشرقها ينظرون إلى يالطا كرمز «لخيانة الغرب لهم، وكجذر لجميع شرور حاضرهم السياسي. فهي عندهم تعني السقوط». وإن هناك أناساً كثيرين في غرب أوروبا من موقع سياسي مختلف أصبحوا يشاطرون وجهة النظر هذه في يالطا قائلين إنها جذر جميع المشكلات التي يعانيها الواقع الأوروبي اليوم. ويستشهد هؤلاء بما كتبه تشرشل بعد شهر واحد من انتهاء مؤتمر يالطا في رسالة إلى روزفلت «لقد قمنا أنا وأنت حين وافقنا على التسوية الخاصة بشبه جزيرة القرم بنشر «نشرة مخادعة احتيالية»، ويقولون في المحصلة «إن سياسة القوى الغربية تجاه أوروبا الشرقية عام 1945 كانت خاطئة من وجهة نظر خُلقية ووجهة سياسية(17).

إن من أهم عِبَرِ هاتين المرحلتين أن ينظر الشمال بشرقه وغربه إلى دول أوروبا الشرقية باعتبارها منتمية إلى دائرته الحضارية، مدركاً

---

(16) ستافريانوس «التصدع العالمي» دار طلاس، دمشق.

(17) أحمد صدقي الدجاني «بداية الصحوة العربية» مقال يالطة وآلية التسوية دار المستقبل العربي.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

أن ما يصيبها من عنت سيؤدي إن عاجلاً أو آجلاً إلى إصابته بعنت. وأن يأخذ الغرب من ثم في اعتباره عند التعامل مع الدول الأوروبية الشرقية في هذه المرحلة وجهة النظر الأخلاقية ويقرنها بوجهة النظر السياسية. وأن تقوم سياسته في ضوئها على تمكينها من النهوض من عثرتها الاقتصادية بإجراء «تبديلات بنيوية» وليس بمنحها «امتيازات ذات أجل قصير» لن تكون في نهاية الأمر إلاّ مسكّنات، فما هو مطلوب اليوم لها هو «التجارة الحرة وليس المعونة» "Free Trade not Aid" على حد قول جيل جرام في (نيويورك تايمز) يوم 1990/3/30(18).

الحال

نتمعن أخيراً في «حال» أمم أوروبا الشرقية. والحال هو «مجمل ما هي عليه أوضاع الأمة». وهو يتضمن «فضلاً عن الحقيقة المادية لهذه الأوضاع، الروح المعنوية، والنفسية السائدة ونبض الحيوية». وتشخيصه يكون بالنظر إلى «المناخ السائد» فيها أهو مفعم بالتفاؤل أو يسوده التشاؤم؟ أيغلب عليه العزم أم الاسترخاء؟ وهذا المناخ السائد تصنعه التفاعلات الجارية في المرحلة التاريخية على مختلف المستويات، ولروح الأمة وروح العصر تأثير واضح عليه(19).

واضح أن أوروبا الشرقية تدخل المرحلة الجديدة من تاريخها وروح أممها مفعمة بالأمل والعزم، وهي تستلهم تاريخها بعامة ومقاومتها لفرض السيطرة عليها إثر يالطا بخاصة. وقد استحضر الرئيس السابق نيكسون صور هذه المقاومة في كتابه «1999» لأننا إذا كنا نرغب في فهم أوروبا الشرقية اليوم فيجب أن نستحضر تلك الصور على حد قوله، «ولأن هذه الانتفاضات الشعبية، وليست أنخاب الشمبانيا في مؤتمرات حلف وارسو هي التي تمثل الواقع السياسي

(19) أحمد صدقي الدجاني «حال الأمة» دراسة لمنتدى الفكر العربي ربيع 1989.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

لأوروبا الشرقية. فالمجريون والتشيك والسلاف والبولنديون والألمان الشرقيون والبلغار شعوب قوية..». ويلاحظ الذين درسوا «الحل» في أوروبا الشرقية الارتباط الوثيق بين الدين والقومية والثقافة، وأن الكاثوليكية كانت في بولندا من مقومات الحركة الوطنية شأن الأرثوذكسية في روسيا مثلاً. وهناك من يرى مع جيوفري هوسكنز في كتابه «يقظة الاتحاد السوفيتي» الذي صدر عام 1988 عن هارفارد «أن جذور إعادة البناء موجودة في النمو البطيء الذي حققه المجتمع المدني السوفيتي قبل عصر جورباتشيف بزمن، وأن هناك احتياطات فكرية وروحية في الثقافة الروسية قادرة على تخطّي الأزمة الراهنة التي يمر بها الاتحاد السوفيتي، بل وقادرة على بناء معجزة ديموقراطية، واقتصادية هناك مع قدوم القرن الحادي والعشرين، وأن جيل إعادة البناء هو نتاج الثورة الاجتماعية منذ عام 1945 وأطول سلام داخلي وخارجي خلال قرن وأن المجال مفتوح أمام تقوية التضامن الاجتماعي والتعامل مع مشكلة القوميات إذا تم تحقيق تحالف بين القوى السياسية والدين المنظم»(20) . وهذا الرأي يصدق في خطوطه العريضة على دول أوروبا الشرقية الأخرى. ولقد تحدث شارلز جاتي في دراسته «جورباتشيف وأوروبا الشرقية» التي نشرتها فورين افيرز في صيف 1987 عن تشيكوسلوفاكيا وكيف كانت كعبة ثقافية في قلب أوروبا قبيل الحرب العالمية الثانية وبين البلاد السبعة الأولى المتقدّمة صناعياً. وأشار إلى ربيعها عام 1968 الذي جاء في أعقاب إصلاحات اقتصادية شهدها الاتحاد السوفيتي في منتصف الستينات ليبرز العلاقة الوثيقة التي تربط بين براغ وموسكو بحيث إنه «متى تعطس موسكو فإن أوروبا الشرقية تصاب بالالتهاب الرئوي»، ليختم دراسته بالقول إننا لا نستطيع أن نعزل ربيع موسكو

(20) انظر عرض الكتاب في جريدة الأهرام 25/4/1990.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

«أي روح ميخائيل جورباتشيف» عن رِباع أو أربعة (جمع ربيع) براغ التي يحبل بها المستقبل(21).

ستتفاعل روح أوروبا الشرقية هذه مع «روح عصرنا» التي هي جماع تبادل تأثير الأمم والجماعات بعضها ببعض في عصر ثورة الاتصال. وقد اعتبر ياسو هيرو ناكا سوني رئيس وزراء اليابان الأسبق في دراسته «نحو مجتمع دولي جديد» التي نشرتها سيرفايفال في خريف 1988 «أن الثورة العلمية التكنولوجية هي روح عصرنا، فالعلم والتكنولوجيا اللذان نشآ أساساً في الغرب وتطورَا لم يقدما منافع مادية فقط للبشرية بل أصبحا أيضاً لغة عالمية، وقد وضعا أسس معايير موضوعية ومناهج للإدراك ترتكز على قاعدة عالمية شاملة». ورأى ناكا سوني أنه حان الوقت كي ندعم روح العصر هذه بعد أن بدا واضحاً أن العلم والتكنولوجيا لا يكفلان وحدهما سعادة الإنسان، وأن إساءة استخدامهما تهدد كرامة الإنسان، و«ذلك بأن نرتفع بها إلى مستوى أعلى ونرسي دعائم مباديء روحية جديدة تهيء البشرية لدخول حقبة جديدة. وأشار ناكا سوني إلى أمرين مطلوبين أولهما وضع العلم والتكنولوجيا في مكانهما اللائق كجزء من الحضارة الإنسانية بحيث لا تكون لهما الغلبة والسيادة المطلقة على البشرية، والآخر دعم وتطور التفاهم بين الثقافات المختلفة وصولاً إلى أساس مشترك لتقدير وتوفير القيم المختلفة. وقال «إننا مقبلون على عصر سيكون فيه التجانس والتضامن المستمدان من أسمى تطلعات الروح البشرية، هما المطلب العاجل والملح للبشرية». وأوضح أن التجانس والتضامن هما جوهر الفكر الشرقي الذي ترتكز عليه الثقافة اليابانية. وطبيعي أن تتطلع أوروبا الشرقية إلى أن تسهم بجوهر فكرها في حضارتها الغربية وفي روح العصر الآتي. فالحال فيها اليوم ينبض

(21) سلسلة شؤون استراتيجية مركز التخطيط الفلسطيني.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

حيوية ويحفل بالأمل وبثقة الجماهير بإمكانية تغيير حياتها نحو الأفضل، وهذا ما يعتبره تويتبي الحدث الأهم والأكثر بروزاً في عصرنا، بحيث يبدو «تحرير الطاقة الذرية وتطبيقاتها في صناعة السلاح واكتشاف الفضاء الخارجي أموراً لا أهمية لها قياسياً بإحياء الأمل والهدف في نفوس الجماهير»، كما جاء في كتابه «أميركا والثورة العالمية»(22).

يوصلنا تمعننا في «الحال» إلى أن نتوقع استمرار التفاعلات في أوروبا الشرقية، ومشاركة قطاعات واسعة من الناس في الأحداث، وبروز الذاتية والخصوصية القومية، وتنامي حركة الإحياء الروحي، وتعاظم التوق للديمقراطية. وقد لاحظ بريجنسكي في مقابلة له مع نيوزويك 18/12/1989 أن إمبراطورية القياصرة التي ورثها الاتحاد السوفيتي تتحول الآن بسرعة إلى «بركان للأمم» تحت حكم جورباتشيف، وهي التي وصفها ماركس بأنها «سجن الأمم» ثم أصبحت تحت حكم ستالين «مقبرة الأمم». وحذر من أن الاتحاد السوفيتي إذا هو لم يحولها إلى اتحادية فإن عليه أن يتعامل مع انفجار. ويتابع المراقبون اليوم تنامي المشاعر القومية في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي بخاصة، ويلاحظون تزايد النزوع القومي الروسي. ويبدو أن من أسباب ذلك الإحساس بقرب تباعد أحجار الكتلة الكبيرة والتحول من المركزية إلى اللامركزية. وقد سبق أن رأينا اشتداد النزعة التركية الطورانية حين تعرضت «الدولة العلية العثمانية» لمثل ذلك قبل قرن من الزمان، ويلاحظ نيكسون أن الروس يشكلون بالكاد نصف تعداد سكان الاتحاد السوفيتي، وأن النصف الثاني يضم ثلاث عشرة قومية كبيرة بخاصة ومائة قومية متميزة بعامة، وأن الشعوب الإسلامية في آسيا الوسطى لم تنس ما عانته

(22) سلسلة شؤون استراتيجية مركز التخطيط الفلسطيني.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

أثناء مقاومتها فرض السيطرة السوفياتية عليها بأساليب وحشية خلال الثمانينات.

يوصلنا التمعن في الحال أيضاً إلى أن ميدان الاقتصاد سيكون هو ساحة التفاعلات الرئيسية في أوروبا الشرقية. وسيحدد ما يحدث فيه اتجاه الأحداث هناك. فالفشل الذريع الذي يحس به الناس تجاه النظام الشمولي بدا واضحاً في هذا الميدان، وكان سبباً قوياً في اندفاع الناس نحو التغيير. والعامل الاقتصادي كما قال شوان لاي هو أحد العوامل الكامنة خلف هذا الاضطراب الكبير تحت قبة السماء. وقد أكدت أحداث أوروبا الشرقية عزم الناس هناك على الخروج من أزمتهم الاقتصادية وتجاوز الفشل، وصدّقت ما نقله ستافريانوس عن كارلوس فينوتس عام 1980 «واليوم إذا كان هناك شيء يجري في أرجاء الدنيا فهو عزم الشعوب على ألا تقبل ببساطة أن للتقدم طريقين محتومين لا ثالث لهما، طريق الرأسمالية الغربية أو طريق الاشتراكية السوفيتية، وعزمها أيضاً على البحث عن السبل الكفيلة باقتران قوة التكنولوجيا بطاقة موروث كل شعب من الشعوب». والسؤال الذي يبرز هنا بإلحاح هو إلى أي مدى يستوعب المحيط الدولي ونظامه هذه الحقيقة، وما إذا كان سيساند هذا العزم أم يصادمه. ومعلوم أن المحيط الدولي يشهد تدويل الاقتصاد في عالمنا، وتنامي دور الشركات عابرة القوميات. وهناك من يرى أن «دور هذه الشركات التي نقلت التقنية الرفيعة الجديدة في الزراعة والصناعة من العالم الأول إلى العالم الثالث زاد في اختلال التوازن بين البلدان المتطورة والبلدان المتخلفة». وسيكون الجواب هو «مساندة هذا العزم» إذا اتجه المحيط الدولي إلى مساعدة أوروبا الشرقية على إحداث «التبديلات البنيوية المطلوبة» وليس مجرد تقديم «امتيازات قصيرة الأجل»(23). وواضح أن نجاح هذا

(23) ستافريانوس مصدر سبق ذكره، الجزء الثاني.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

العزم يقتضي بداية الاعتماد على الذات والمشاركة الجماهيرية. وهذا يتطلب مناخاً ديموقراطياً تترعرع فيه الثقة بقدرة الناس على معالجة مشكلاتهم، وينتهي طغيان «إيديولوجية نظام الدولة»، ويرتفع شعار «فكِّر عالمياً واعمل محلّياً»، ويتنامى العمل التطوعي الأهلي الذي يبث الروح في التجمعات الصغيرة في رقاعها الصغيرة، وفق ما شرحته المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية في عددها الخاص بالصلة بين المحلية والعالمية في أغسطس 1988(24).

يوصلنا التمعن في الحال أخيراً إلى الوقوف أمام المضاعفات الناجمة عن التدخل في التفاعلات الجارية في أوروبا الشرقية لاستغلالها وتحويلها إلى أعمال عدوانية، والأخطار التي تنجم عن هذه المضاعفات، وبخاصة حين يتخذ هذا التدخل من الحاجة الاقتصادية وسيلة للمساس بالبنية القومية. ومَثَّل على هذا التدخل رهن أطراف غربية تقديم معونتها الاقتصادية والتقنية بتمكين الصهيونية من تهجير اليهود الأوروبيين الشرقيين من أوطانهم إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة بحجة إنقاذهم من الاضطهاد الذي يتعرضون له ليقيموا في إسرائيل التي وجدت فيما يرى هؤلاء «لتكون ملجأ لليهود المعرضين للإبادة!!». والمفارقة الأولى هنا هي تعرض مواطنين يهود للاضطهاد في وقت الانفراج الديموقراطي الذي بدأت دول أوروبا الشرقية تعيشه، والوضع الطبيعي هو أن يتعايش هؤلاء مع غيرهم من الأقوام باعتبارهم مواطنين ضمن أممهم ويتعاونوا في إطار تعددية دينية وتعددية سياسية. والأمر الذي يلفت النظر في هذا التدخل أنه يرفع شعار حقوق الإنسان ومنها حقه في مغادرة وطنه والعودة إليه، وفق البند الثاني من المادة الثالثة عشرة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، بينما هو يستهدف التهجير بنية الاستعمار الاستيطاني

(24) المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، أغسطس 1988، يونسكو.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

لوطن آخر. وهذا يعني انتهاكاً لحقوق الإنسان على مستويين مستوى الإنسان الذي يتم تهجيره ومستوى الإنسان الذي سيتعرض لعدوان التهجير وفقدان وطنه. ومعلوم أن الهجرة عمل فردي حر مسؤول يحترم أمن الآخرين، كما حددها القانون الدولي، بينما التهجير عمل جماعي قسري عدواني. والمفارقة الثانية هنا هي أن الأطراف الغربية التي عملت لهذا التهجير الصهيوني أغلقت أبواب بلادها في وجوه اليهود الأوروبيين الشرقيين الذين أرادوا الهجرة إليها. والمفارقة الثالثة هنا هي أن السلطات التي سمحت بتهجير مواطنيها اليهود حرمتهم عملياً من حق عودتهم إلى أوطانهم حين زودتهم بوثائق سفر صالحة للمغادرة ولمدة قصيرة. والمفارقة الرابعة هنا هي اتفاق تلك الأطراف والسلطات على تحديد وجهة واحدة للتهجير وطريق واحد ذي اتجاه واحد. والمفارقة الخامسة هنا هي أن الصهيونية تنظم هذا التهجير تحت شعار قانون العودة الإسرائيلي الذي يحث اليهود على أن يغادروا أوطانهم، في الوقت الذي تحرم فيه أبناء شعب فلسطين العربي من ممارسة حقهم في العودة إلى وطنهم الذي كفله لهم القرار الأممي رقم 194/ لعام 1949. وجميع هذه المفارقات تبين خطورة هذا التدخل في التفاعلات الجارية في أوروبا الشرقية الذي سيكون من نتائجه في أوروبا الشرقية تفاقم مرض ما يسميه الغرب العداء للاسامية. كما سيكون من نتائجه في منطقة الوطن العربي تصاعد التوتر بسبب التهجير العدواني إلى درجة تنذر بالتفجر. ويرى عدد من المحللين أن نتائجه ستمتد أيضاً إلى الإسرائيليين الذين ستعاني قطاعات واسعة منهم بسبب ما سيترتب على عملية استيعاب المهجّرين من صعوبات. وقد كان الملك الحسن الثاني راعي أكاديميتنا في مقدمة القادة الذين نبهوا إلى خطورة هذا التدخل، ودعا إلى التمييز بين الهجرة والتهجير الذي يساق فيه الناس سوقاً لأغراض استعمار استيطاني لوطن شعب

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

آخر، ثم تلاه عدد من القادة الأوروبيين الذين أعلنوا أن ممارسة البعض حق الهجرة لا يجب أن تكون على حساب حقوق آخرين، وأنهم لم يكونوا يقصدون من سعيهم السماح بالهجرة تشجيع التهجير. وهناك اليوم في أوساط اليهود الأوروبيين أنفسهم من يستشعر خطورة التهجير الصهيوني لليهود من أوطانهم وما يؤدي إليه من استشراء «اللاسامية» في الدول الأوربية، الأمر الذي يُذكر بما تضمنته رسالة الوزير البريطاني سونتاجو «اليهودي» في وزارة لويد جورج عام 1917 التي عارض فيها تصريح بلفور، وأكد صفته كمواطن بريطاني، ونبّه إلى ما سيؤدي إليه مشروع الوطن القومي اليهودي من تأجيج نار «اللاسامية» في أوروبا. والحق أن هذا الموضوع بمجمله يؤكد على هدف «الخير الأخلاقي» الذي يجب أن تستهدفه أي سياسة، وضرورة «المقياس الأخلاقي» في الحكم على أي سياسة(25).

* * *

حول المستقبل

طبيعي أن تتأثر أوروبا الشرقية بسياسات الأطراف الدولية المختلفة تجاهها، تماماً كما أثرت التحولات فيها بشكل أو بآخر وبدرجات متفاوتة هنا وهناك. وقد رأينا أن بعض هذه السياسات الدولية تتجسد في تدخلات في التفاعلات الجارية، وسقنا مثلاً على ذلك. وهذا يدعونا ونحن نستشرف مستقبل أوروبا الشرقية ونبحث في علاقاتها الدولية إلى أن نتعرف على أكثر هذه السياسات الدولية تأثيراً في مستقبلها، وذلك بعد أن تعرفنا على العوامل الداخلية.

لقد أدت التحولات الجارية في أوروبا الشرقية إلى سقوط «سور برلين». ويرمز هذا الحدث إلى سقوط الخط الذي قسم القارة

---

(25) فصلت الحديث عن هذا الموضوع في سلسلة مقالات نشرتها عدة صحف عربية وتصدر في دراسة بمجلة «شؤون عربية».

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

الأوروبية إلى قسمين شرقي وغربي في تسويات يالطة. وإن لنا أن ننظر من ثم إليه ليس باعتباره حدثاً قائماً بذاته بل على أنه جزء من إعادة التنظيم الجارية في أوروبا والعالم. والحق أن التوجه الرئيسي لمجرى الأحداث في المرحلة الجديدة التي شهدت قمة يالطة هو للتقارب بين جزأي أوروبا وصولاً إلى «بيت أوروبي واحد»، على حد تعبير جورباتشيف. وهذا يعني أن أوروبا الشرقية بما فيها روسيا تتطلّع إلى أن تكون ضمن «الشمال» بمدلوله الاقتصادي الذي يتكون من أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، وضمن «دائرة الحضارة الغربية» التي تنتمي إليها أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية. وواضح أن تحقيق هذا التطلع مرهون بما ستؤدي إليه تفاعلات السياسات السوفيتية والأمريكية والأوروبية الغربية.

الاتحاد السوفيتي

إن السياسات السوفيتية تجاه أوروبا الشرقية محكومة اليوم بـ«إعادة البناء» ورؤية جورباتشيف «لأوروبا اليوم والغد». وقد حسمت هذه الرؤية في أمر انتماء أوروبا الشرقية بعامة ومنها روسيا لأوروبا، وأعلنت في مواجهة «البعض في الغرب الذين يحاولون استبعاد الاتحاد السوفيتي من أوروبا، ويتحدثون عن أوروبا على أنها أوروبا الغربية فقط» أن «حيلة كهذه لا يمكن أن تغير الحقائق الجغرافية والتاريخية»، على حد قول جورباتشيف الذي يتحدث عن الاتحاد السوفيتي الأوروبي طارحاً حججه «فتجارة روسيا وروابطها الثقافية والسياسية مع الأمم الأوروبية تضرب بجذور عميقة في التاريخ.. وقد وحدت المسيحية روسيا مع أوروبا.. وتاريخ روسيا جزء لا يتجزأ من التاريخ الأوروبي العظيم، كما أن الروس والأوكرانيين وشعب روسيا البيضاء والمولدافيين والليتوانيين واللاتينيين والأستونيين والكاريل

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

وغيرهم من شعوب بلادنا كانت لهم جميعهم مساهمتهم الملموسة في تطور الحضارة الأوروبية، ومن ثم فإنهم يعتبرون أنفسهم عن حق ورثتها الشرعيين». وهكذا تحدد هذه الرؤية توجه الاتحاد السوفيتي اليوم وتطلعه إلى «تجاوز الخارطة المتعددة الألوان لأوروبا السياسية» و«الستار الحديدي» وصولاً إلى ما أسماه جوربباتشيف «البيت الأوروبي المشترك» يمتد من الأطلس حتى الأورال» ويمثل «كياناً ثقافياً وتاريخياً لوحدة الميراث المشترك للنهضة والتنوير».

تحرص هذه السياسات السوفيتية على علاقات الاتحاد السوفيتي بدول أوروبا الشرقية وتعمل من ثم على تجديدها. وقد خصص جورباتشيف فصلاً في كتابه لها بعنوان «نحو علاقات جديدة»، وأوضح أن «إطار العلاقات السياسية يجب أن يقوم بشكل صارم على الاستقلال المطلق»، وأن إطار العلاقات الاقتصادية هو المنفعة المتبادلة والمساعدة المتبادلة والتكامل»، وليس التطابق لأن «لكل أمة تقاليدها ومأثوراتها الخاصة وخصائصها». وتولي هذه السياسات السوفيتية عناية خاصة بأمر ألمانيا. وقد حرصت في بداية مرحلة «إعادة البناء» على عدم الترحيب بتغيير الحدود السياسية القائمة و«بخاصة تلك التي قسمت ألمانيا إلى دولتين شرقية وغربية»، في الوقت الراهن. ولكن بدا واضحاً أن توحيد ألمانيا أمر قابل للبحث، في نطاق أوروبا الواحدة(26).

الولايات المتحدة

لقد اعتمدت الولايات المتحدة الأمريكية تجاه أوروبا الشرقية «استراتيجية التغيير السلمي» التي شرحها ريتشار نيكسون في كتابه «1989 نصر بلا حرب». وتقوم هذه السياسة في رأيه على الردع أساساً، وتشمل أربعة عناصر أولها السعي إلى استرعاء التوتر

(26) جورباتشيف «البرسترويكا والجلاسنوست» ترجمة بلبع، دار المستقبل العربي.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

الأميركي السوفيتي، «لأن التوتر الدولي يقوي الديكتاتورية في حين أن تخفيفه يضعفها.. وقد ساهمت سياسة الانفراج في السبعينات في ظهور التضامن في بولندا، ولأن أثر الانفراج على أوروبا الشرقية عشرة أمثال أثره على الاتحاد السوفيتي». وثانيها تحقيق أقصى قدر ممكن من الاتصال الغربي مع شعوب أوروبا الشرقية وتقديم المساعدة لها. وثالثها السعي إلى تخفيض القوات التقليدية الأميركية والسوفيتية في أوروبا، «لأنه كلّما قلّت القوة العسكرية للاتحاد السوفيتي في أوروبا الشرقية قلّت سيطرته عليها». ورابعها معاونة الزعامات في أوروبا الشرقية التي تريد تطبيق إصلاحات حقيقية حتى لو أنها شيوعية. فهذه السياسة إذن ترتكز على المنافسة السلمية في أوروبا الشرقية وتعتمد «البراجماتية ـ العلمية».

نستطيع أن نفهم هذه السياسة بشكل أفضل وأعمق حين نتعرف على السياسة الأميركية تجاه أوروبا الغربية، ورؤيتها لسياسة الاتحاد السوفيتي الأوروبية. وقد أوضح نيكسون «أن أوروبا الغربية، ما زالت بالنسبة للولايات المتحدة تمثل أهمّ رقعة استراتيجية واحدة من الأرض في العالم. فهي تضم ما يزيد عن ربع القوة الاقتصادية للعالم، وتمثل الخط الأمامي للدفاع ضد الاتحاد السوفيتي». تماماً كما أوضح «أن أوروبا الغربية ما زالت هدفاً جيوبولتيكياً رئيسياً! وأن من شأن إسباغ الطابع الفنلندي على أوروبا أن يعزز القوة الاقتصادية للاتحاد السوفيتي تعزيزاً هائلاً وأن يؤدي إلى كارثة اقتصادية للولايات المتحدة. وليس في وسع الولايات المتحدة أن تغوص في عزلة جديدة تكتفي فيها بنفسها فهي بحاجة إلى مساعدة حلفائها للدفاع عن مصالحها والمصالح الغربية حول العالم»(27).

(27) ريتشارد نيكسون، مصدر سبق ذكره.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

* أوروبا الغربية

واضح إذن أن أوروبا الغربية تجد نفسها اليوم في مرحلة ما بعد قمة مالطة أمام استراتيجيتين سوفيتية وأميركية تجاههما مختلفتين، ولكنهما تعتمدان المنافسة السلمية. ولكل منهما رؤيته للقارة الأوروبية وموقفه من توحيدها، وسياسته من ثم تجاه أوروبا الشرقية. وليس من المتوقع أن يحدث تغيير جذري على المدى القريب في أي منهما، لأن الشكوك في الدوافع لاتزال موجودة عند كل منهما فيما يخص الآخر. وهذا ما سيجعل القارة الأوروبية موضع تنافس قوي بينهما. فكيف ترى أوروبا الغربية هذه الأمور، وما هي سياستها تجاه أوروبا الشرقية؟

لقد حدثت التحولات في أوروبا الشرقية بينما «الجماعة الأوروبية» على وشك الإقلاع لإيجاد السوق الأوروبية الغربية الواحدة في مطلع عام 1992، في محاولة تاريخية لتحقيق رؤية آبائها المؤسسين. وستضم السوق 324 مليون مستهلك، أي ما يعادل سوق الولايات المتحدة ومرة ونصف من سوق اليابان. وستمثل هذه الخطوة تقدماً نحو بلوغ الوحدة الأوروبية. وجاءت هذه التحولات لتطرح موضوع ألمانيا الموحدة بعد انهيار جدار برلين في نوفمبر 1989 ضمن أوروبا الواحدة، ولتفسح المجال أمام توسع أوروبا الغربية شرقاً.

إن الموقف الأوروبي الغربي من هذه التحولات في محصلته شديد التأييد لها، ويرحب بقوة بسياسة إعادة البناء التي كانت وراءها. ويدخل في صنع هذا الموقف ما خلّفه تقسيم أوروبا في يالطا من مرارة في نفوس الأوروبيين الغربيين ومن شعور بالإثم إزاء ما اعتبره البعض «خيانة» الأوروبيين الشرقيين. كما يدخل في صنعه تحسباً أوروبياً من أخطار المواجهة الأمريكية السوفيتية التي ستكون أوروبا الغربية ساحة رئيسية لها، وكذلك تحسباً أوروبياً من احتمال سيطرة ما يسمونه الحضارة الأمريكية (28).

(28) أحمد صدقي الدجاني «مستقبل العلاقات العربية الأوروبية» ندوة العرب وأوروبا 1992.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

واضح أن اتجاه مسار الأحداث في أوروبا هو إلى توحيد ألمانيا الذي ستوافق عليه الدولتان الكبيرتان مع شروط معينة. وواضح أيضاً أن هذا الاتجاه هو الوصول إلى هوية ثقافية أوروبية غربية واحدة مهيأة لتكون أوروبية عامة مستقبلاً. وقد أكّد جاك دي لور رئيس «الهيئة الأوروبية» «أن ألمانيا موحدة وكبيرة تتطلب أوروبا أقوى وأكثر ترابطاً». وأوضح أنه يعمل حالياً على تطوير تصور لأوروبا المستقبل يستند على عدة دوائر متداخلة، «تكون دائرتها المركزية السوق المشتركة بأعضائها الإثنى عشر يتم توثيق عرى الترابط بينها عن طريق الوحدة النقدية والسياسية والاقتصادية، تليها دائرة أوسع تضم الدول المحايدة الأعضاء في الاتحاد الأوروبي للتبادل الحر الذي يضم الدول الاسكندنافية وسويسرا والنمسا، ويمكن أن تضم إليها مستقبلاً دولاً مثل المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا، أما الدائرة الثالثة الأوسع فتضم دولاً كالمغرب وتركيا تتمتع بعلاقات مميزة مع السوق المشتركة ولكنها لا تملك شروط الدخول في الدائرة المركزية». فدول أوروبا الشرقية واردة في مخططات الجماعة الأوروبية الوحدوية على المدى المتوسط(29). ويرى بريجنسكي «أن أوروبا الغربية في أحسن الأحوال ستكون قوة اقتصادية، وأن توسعها شرقاً سيؤخر التكامل الأوروبي فترة».

اليابان

لا يكتمل حديث أوروبا الشرقية و«الشمال» بمدلوله الاقتصادي دون الإشارة إلى اليابان التي تدخل فيه. وواضح أن اليابان تتابع تحولات أوروبا الشرقية باهتمام شديد تماماً كما تابعت توجه الجماعة الأوروبية نحو إقامة السوق الواحدة. ويرى سيكيهين كونهيرو «أن اهتمام اليابان اليوم بما يجري مختلفٌ عن اهتمامها

(29) الأهرام 1990/4/29.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

بالأمس، فهي تتمتع اليوم برؤية أوسع، وتتطلع إلى إيجاد طريق في معالجة الاقتصاد العالمي تجنب العالم نشوب نزاع بين المقاربة الإقليمية والنظام الاقتصادي الشامل الذي تحاول حفظه». وقد طرح ناكا سوني في مقاله «نحو مجتمع دولي جديد» اهتمامات آسيا الاستراتيجية، ورحب بإعادة البناء والمصارحة لأن لهما في رأيه شأناً كبيراً للغاية»، ودعا إلى اختيار بديل تحسين العلاقات وصولاً إلى بديل «الإقلاع عن النزعة الستالينية وسياسة الاحتواء وإرساء دعائم مصالحة عالمية شاملة وتطبيع حقيقي للعلاقات بين الشرق والغرب على أساس مباديء وقيم جديدة»، واعتبر أن الكرة في ملعب الاتحاد السوفيتي ليبادر خطوة لتوقيع معاهدة سلام بينه وبين اليابان «تشكل الأرضية للثقة المتبادلة»(30). وهكذا نتوقع أن يكون تعامل اليابان مع دول أوروبا الشرقية معنياً بالأمور الاقتصادية، وأن يحكم علاقاته بها العلاقات اليابانية السوفيتية وذلك شأن الصين.

والجنوب

يمكننا أخيراً في ضوء ما سبق أن نقول إن علاقات أوروبا الشرقية بالجنوب بمدلوله الاقتصادي ستقع أساساً ضمن إطار علاقات الشمال الذي تتطلع الدول الأوروبية الشرقية أن تكون منه بالجنوب. وواضح أن التحولات التي جرت في أوروبا الشرقية حفزت أطراف الجنوب على إجراء مراجعة شاملة لسياساتها تجاه «دول المنظومة الاشتراكية» ويقدم لنا التقرير الختامي لورشة العمل التي دعاها منتدى الفكر العربي لاقتراح سياسات عربية جديدة تجاه الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية في مارس 1990 نموذجاً لأفكار طرف «جنوبي» يحتل مكاناً خاصاً في دائرة الحضارة العربية الإسلامية. وقد تضمن هذا التقرير نظرة عامة على المتغيرات الدولية، وعلى تطور

(30) ناكاسوني، مصدر سبق ذكره وكونيهيرو، ملحق تايمز بريطانية 89/1/20.

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

الأوضاع في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية، ومقترحات للعمل تتضمن خطوات عاجلة تواجه التهجير الصهيوني لليهود في المقام الأول وإطاراً أشمل يحتوي سياسات اقتصادية، وآليات للتنفيذ. الانطباع الذي يخرج به قارىء هو استشعار واضعيه لأهمية التحولات الجارية في أوروبا الشرقية، وعزمهم على التعامل معها بموضوعية وبلغة المصالح المتبادلة وتصميمهم على مواجهة خطر التهجير(31)، والتفاتهم إلى التعاون مع إخوانهم المسلمين في آسيا الوسطى والمسيحيين والأورثوذكس من أتباع الكنيسة الشرقية التي يتبعها مسيحيو الوطن العربي في غالبيتهم.

وبعد..

فإنّ التحولات والتغييرات في أوروبا الشرقية شأنها في أجزاء أخرى من كوكبنا، تشي بوجود ظاهرتين تبرزان في عالمنا المعاصر هما «تخلخل الكتل» و«تلطف الإيديولوجية». وقد تفاعل في تكوينهما الرعب النووي وعنصر الدولة والنزوع القومي والقيم العملية البراجماتية والضرورات الواقعية. وطبيعي أن تحدث في إطارهما «تغيرات هيكلية»، ويجري التطلع في نطاق بحث احتمالات المستقبل إلى ما يسميه جمال حمدان «الحل الوسط التاريخي» «فلما كان الشرق والاتحاد هو قطب الإيدولوجيا وقمتها، وكان الغرب وأمريكا قطب التكنولوجيا، وكانت أوروبا الغربية هي الوسط فقد ينتهي الأمر إذن إلى أرض مشتركةيندغم فيها الجميع في نظام إيديولوجي واحد هو وسط بين الشيوعية الفاقعة والرأسمالية الكالحة، لعله يكون الاشتراكية المعتدلة أو المعدلة أو العادلة أو العادية». وقد ختم جمال حمدان حديثه هذا الذي يدور حول الدائرة الغربية بشرقها وغربها بقوله «إن الدرس الأكبر الذي يُعلّمه لنا تاريخ الصراعات البشرية والسياسية أنه ليس

(31) منتدى الفكر العربي، ورشة عمل: شارك فيها سمو الأمير حسن بن طلال وأرسل

Ce document a été fabriqué par PDFmail (Copyright RTE Multimedia)
http://www.pdfmail.com

هناك ما يمنع في نهاية المطاف من أن يكون كل أعداء الأمس أصدقاء الغد. وأن يصبح التشكيل السياسي الوحيد في العالم هو استراتيجية السلام لا الصراع وحلف البشرية».

واضح أن هذه التحولات والتغييرات الجارية في عالمنا تحثنا على بلورة رؤية مستقبلية تتضمن حلاً للمشكلات العالمية. وكتب الرؤى كما أوضح الأب إسطفان شربنتيه في دليله إلى قراءة الكتاب المقدس «تنشأ عادة في زمن الأزمة» حين يتفق أن يبدو الشر مستعصياً والطريق مسدوداً بلا مخرج، فيجري التطلع إلى أيام أفضل تأتي من خلال تغيير الأنفس. وهناك كثيرون اليوم يرون مع ناكاسوني «أن الوقت حان لكي تعمل جميع بلدان العالم، كل في إقليمه، وأن تبذل جهدها قولاً لا فعلاً من أجل الوصول إلى حلول معقولة وبناءة للمشكلات الأساسية، ومن أجل إقامة علاقات أفضل وأكثر دواماً تلائم القرن القادم». كما يرى هؤلاء، أن مثل هذه العلاقات لابد أن تأخذ بعين الاعتبار تطلعات الروح البشرية وتستلهم القيم الروحية. وهذا يقتضي حواراً بين المؤمنين، تطلّع إلى حدوثه فيمن تطلع المؤرخ أرنولد توينبي في قمة نضج أفكاره ورأى أن مستقبل الإنسانية ومصيرها يتوقف عليه، وحدةً وبقاءً وازدهاراً، أو انقساماً وزوالاً وتبدّداً، وسنبقى نتطلّع إلى أن يثمر الحوار تعاوناً على البر والتقوى واستقامة على الطريق ﴿**وأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقًا**﴾.(32)

(32) سورة الجن، الآية 16.